تجربة إعداد كتاب "دليل المصطلحات العرفية المستخدمة في التعامل مع النزاعات المحلية. بحث ميداني مرجعي: مديرية برط المراشي محافظة الجوف، ومديرية منبه محافظة صعدة"، صنعاء ٢٠٠٩م، واستخلاص سلبيات العرف القبلي وإيجابياته

الأستاذ الدكتور عارف أحمد إسماعيل المخلافي

أستاذ التاريخ بجامعتي أم القرى وصنعاء

مقدمة:

عندما تعاقدت معي منظمة "أدرا" بإعداد دليل عن المصطلحات العرفية التي تستخدمها قبائل الجوف (تطبيق على مديرية برط المراشي) وصعدة (تطبيق على مديرية منبه)، لم يكون مطلوب مني أكثر من تقرير يتضمن أهم المصطلحات، لكني فكرت بعقل الأستاذ الجامعي أن أستغل الفرصة لإعداد قاموس مرجعي يعين طلبة الدراسات العليا والباحثين في التاريخ الحديث وعلم الاجتماع على فهم الوثائق القبلية وألفاظها ومصطلحاتها، وعكفت على ذلك طوال المدة المحددة في العقد والتي لا تتجاوز الأشهر الثلاثة، وكانت النتيجة أن تحقق لي الإنجاز الذي خططت له، وفي الوقت نفسه وفيت بعقد إعداد الدليل.

كان العمل شاقاً، واكتسبت خلاله خبرة كبيرة في التعامل مع الدراسات الميدانية التي تختص بالتراث اللامادي (الشفهي)، وكذلك تعلم خبرة جديدة تتعلق بالإنجاز المتقن في زمن قياسي. فكان التخطيط المحدد بزمن ومراحل محسوبة بدقة، ومن ثم التنفيذ في ضوء ذلك تجربة تستحق أن أنقلها للباحثين كخبرة مباشرة.

العمل في الدليل ومراحله ونتائجه:

يعد دليلُ المصلحات العرفية الأولُ من نوعه على حد علمي كعمل أكاديمي صرف، وتكمن أهميته العلمية في الآتي:

١. أثبت الدليل تنوع القيم الحضارية التي يمتلكها المجتمع اليمني في تنظيم نفسه، وقدرته على إيجاد البدائل إذا ضاقت به الأحوال أو انقطعت به السبل.
٢. وثّق الدليلُ العرفَ القبلي وجانب من اللهجات في مديريتي برط المراشي بالجوف، ومنبه بصعدة، وهو ما يتيح للباحثين في مجال اللهجات واللغويات العمل على دراستها وتأصيلها. كما يتيح للباحثين الاجتماعيين دراسة الواقع اليمني في ضوء تلك البيانات الميدانية.
٣. سوف يساعد الدليل الطلاب والباحثين في قسمي التاريخ والاجتماع على قراءة الوثائق العرفية بيسر وسهولة.
٤. كما يساعد أيضاً الباحثين في مجال تاريخ القانون على مزيد من التعرف على إسهامات المجتمع اليمني في هذا الجانب.

وقد أُعد الدليل حتى وصل إلى الصورة التي صار فيها كتاباً، خلال مراحل عدة يمكن إيجازها في الآتي:

المرحلة الأولى: مرحلة العمل المكتبي الأول وقد تم فيها الآتي:

١. جمع المصطلحاتِ والألفاظ من المراجع، وكانت جميعها من برط في الجوف، أما بالنسبة لمنبه بصعدة فلم يسبق أن تناول مصطلحاتها العرفية أحد على حد علمي. (واستغرق ذلك أسبوعان).
٢. ثم قام المعنيون في المنظمة بإعداد خطة للنزول الميداني مع تحديد المناطق التي سيتم زيارتها، وكذلك الأشخاص الذين سيجري مقابلتهم.
٣. حددت المنظمة مشاركين شباب للمشاركة في النزول الميداني، من المدرسة الديمقراطية، ومؤسسة صناع الحياة، والمنسقين الميدانيين في المناطق.
٤. تلا ذلك إعدادُ ورشةَ عملٍ للفريق بغرض تعريفه على طبيعة العمل الذي سيقومون به وخطةِ الوصول إلى كل شخصية والزمنِ المحدد لذلك على المستوى اليومي، والأسبوعي. (وهذه الإجراءات استغرقت أسبوعاً واحدا).

المرحلة الثانية: مرحلة النزولِ الميداني: (استغرق مدة أسبوعين)، وتم فيها الآتي:

١. تسليم خطاباتٍ من المنظمة إلى محافِظَيْ الجوف وصعدة، وكذلك إلى مديرَيْ المديريتين المستهدفتين في الدراسة الميدانية "برط المراشي" و "منبه".
٢. مقابلةُ المشائخ وتدوينُ ما يعرفونه عن العرف، مع قراءةِ بعض الوثائق واستخراجِ المصطلحات والتعرف على معانيها، وكذلك تصويرُ ما أمكن من تلك الوثائق القديمة والحديثة للتعرف على مدى استمرارية تلك المصطلحات، وتداولها بين الناس. (وهذه الوثائق مرفقة بالدليل، مع صور المشائخ الذين تم مقابلتهم).
٣. ثم عدنا إلى صنعاء وانتهت بذلك مهمة الشباب المشاركين في النزول الميداني.

المرحلة الثالثة: وهي مرحلة البدء بالعمل المكتبي الثاني:

استغرقت هذه المرحلة شهران كاملان حسب الخطة. وهي المرحلةُ التي انفردتُ فيها بالعمل العلمي للدليل، وقد قمت خلالها بالآتي:

- زيارة بعض المنظمات العاملة في اليمن، لاستكشاف ما إذا كانوا قد نفذوا أعمالاً مشابهة يمكن الإفادةُ منها، ولكني لم أجدْ شيئاً لديهم سوى تقريرٍ تحليليٍ خاصٍ "ببرنامج دعم التفاوض وتسوية النزاعات"، أعد من قبل المعهد الديمقراطي الوطني للشئون الدولية.

- ثم بدأت بتصنيف الوثائقَ والمعلوماتِ ورسمِ خطةٍ منهجيةٍ لذلك، وإعداد الدليل. وقد اعتمدت ترتيباً أبجدياً لكل مديريةٍ على حدة لضرورة منهجية هي: أن كلَ مديريةٍ تنفرد بأعراف خاصة، وفي حال الدمج سيجد المهتمين والباحثين صعوبةً في التمييز بين هذا المصطلحِ أو ذاك عند الحاجة للاستعانة بالدليل لقراءة وثيقة من هذه المديرية أو تلك، هذا من ناحية ومن ناحية ثانية لتوثيق لهجة كل منطقة على حدة..، كما تم دمج المعلومات الميدانية بالمعلومات التي

توفرت عن برط المراشي من المراجع وبلغت (١٢٨ مصطلحاً من الميدان + ١١٢ مصطلحاً من المراجع). أما مديرية منبه فقد بلغ عدد المصطلحات وجميعها من الميدان (١٠٢ مصطلحاً)، ووصل إجمالي عدد مصطلحات الدليل بما فيها الملحق (٤١٧ مصطلحاً). وقد اعتمدت الأبجديةَ البسيطةَ أو الألفبائية، ولم اعتمدْ على جذر الكلمة عند الترتيب؛ وسبب ذلك أن كل كلمة هي مصطلح مستقل أو لفظ ليس له أي اشتقاقات كما هو الحال في المعاجم مثل "التهجير" و"المراغة"، ومن ناحية أخرى بما يناسب الغرض من الدليل بحسب العقد.

ثم قمت بإعداد الملاحقَ الخاصة بالدليل وهي:

الملحق الأول: واختص مصطلحات عرفية من كتابي الشيخ صياد حول العرف في خولان الطيال وذلك للفائدة رغم أنه لا علاقة لتلك المصطلحاتِ بالمديريتين المعنيتين.

الملحق الثاني: وتضمن وثائق قبلية عرفية موثقة بأسماء أصحابها.

الملحق الثالث: واحتوى على صور المشايخ الذين تم مقابلتهم.

الملحق الرابع: أعد لتوثيق ورش العمل والتغطية الصحفية.

كما تضمن الدليل ملخص للمصطلحات باللغة الإنجليزية ورتب ترتيباً أبجدياً.

-بعد ذلك تم تسليم النسخة الأولى من الدليل وفي موعدها المحدد.

المرحلة الرابعة: عقد ورشة عمل لمراجعة الدليل وإقراره، (ومدتها يومان):

- فقد تم استدعاءُ مشايخ ووجاهاتٍ ومسئولين محليين.

-ثم افتتحت ورشةَ العملِ بصنعاء رسمياً بحضور نائب وزير الإدارة المحلية ووكيلة الوزارة.

- بعد ذلك تم تقسيمُ المشاركين إلى مجموعتين، وجرى العملُ على أساس

قراءة المصطلحات على الحاضرين وإقرارها واحداً واحداً وذلك على النحو التالي:

المجموعة الأولى: مجموعة مديرية برط المراشي وأشرف عليها الأخ الأستاذ عبد الحكيم العفيري الخبير في المعهد الديمقراطي، وتمكن من ضبط وتصويب ٤٧ مصطلحاً.

والمجموعة الثانية: مجموعة منبه وأشرف عليها الأخ الأستاذ سعيد الصوفي الباحث الاجتماعي، وتمكن من ضبط وتصويب ٤٤ مصطلحاً.

المرحلة الخامسة: قمت فيها بتصحيح ما استوجب تصحيحه من المصطلحات وإخراج الدليل بصورته النهائية.

إيجابيات وسلبيات العرف القبلي:

وبعد هذا العمل الشاق، ما هي الآثار الإيجابية والسلبية للعرف ؟، وهل يحل العرف المشاكل بين القبائل، أو بين أفراد القبائل وأشخاص من مناطق أخرى أم يشجعها؟

في الواقع هذه مفارقة عجيبة فمثلاً عندما تحدث مشكلة، قد يتدخل الوسطاء ويتفق على هدنة مؤقتة، وهذا بدوره يؤدي إلى صلح طويل أو قصير. وأحياناً تحل المشكلة وأحياناً لا تحل وتبقى معلقة. وهذا أمر إيجابي لجهة إيقاف النزاع ومن ثم البحث عن حلول دائمة.

ولكن العرف في بعض الأحيان يشجع على إثارة المشاكل من وقت لآخر. كيف يكون ذلك؟

مثلاً يقوم شخص بارتكاب جريمة أو إثارة مشكلة تستدعي وقوف قبيلته إلى جانبه بالمواجهة المسلحة أو لإنفاق الكبير في المقاضاة والسعي لحل الخلاف والتحكيم والفصل ...، والقبيلة ملزمة بحسب العرف بتحمل الغُرم مهما كثر، وهذا يؤدي إلى جعل الشخص الذي قام بارتكاب الجريمة أو الاعتداء لا يشعر بإرهاق نفسي أو مادي. فقد تحل المشكلة نعم! لكن ذلك الشخص لا يرتدع، وهو ما قد يؤدي إلى ارتكاب الخطأ في مكان آخر. وهكذا يسير الأمر

في جميع القبائل ونتيجة ذلك كله، النزاعات المستمرة والثأر المستمر أيضاً، والإقدام على الاعتداء لأتفه الأسباب، وهذا بدوره يولد روح عدوانية ترتكن إلى الظهر القبلي.

والسؤال هنا: أين دور الدولة في حل مشاكل الناس، ولماذا يتجاهل الناس الشرع والقانون والدولة ويحلون خلافاتهم بطرقهم الخاصة؟

الناس يقولون إن ضعف القضاء وعدم السرعة في القبض على الجناة في حالة القتل أو ارتكاب الجرائم، ومن ثم الحكم العادل دونما تدخل من الواسطة أو النافذين أو دخول المماحكات بأشكالها المختلفة ...، كل ذلك يؤدي إلى اعتماد العرف سبيلاً لحل المشاكل.

ولكن إذا كان للعرف أثر إيجابي على صعيد الخلافات الشخصية، أو النزاعات بين القبائل. فهل يمكن أن تحل مشاكل الدولة الأمنية والسياسية بالعرف؟

الملاحظ أن التحكيم القبلي واللجوء إلى العرف في مشاكل اليمن صار يغلب عليه الحل العرفي، ومن ثم تهميش القانون، وهو ما يؤثر على هيبة الدولة ومكانتها، ومع ذلك صار مخرجاً لكثير من المشاكل الكبرى والصغرى ...

وفي الختام السؤال الذي يطرح نفسه. ما لحل ؟

من وجهة نظري أرى أن يتم الآتي:

١. استخدام العرف لإيقاف المشكلة، كالهدنة وقبول التحكيم ونتائجه.
٢. يلي ذلك إعمال الشرع والقانون في حق الصغير والكبير القوي والضعيف كما أمرنا الله.
٣. يشترط لنجاح هذا الإجراء، قضاء عادلاً ومستقلاً، ومنع التدخل في شؤونه، وتحييد الواسطة، وعدم اللجوء إلى الصلح العرفي مهما كانت الظروف، ويمكن أن يكون ذلك مرحلياً في الحالات النادرة وفي أضيق الحدود. بحيث يكون هنالك اتفاق عام على ذلك.
٤. تسليم الجميع بالاحتكام لشريعة الله باعتبار أن المجتمع اليمني مجتمع مسلم.

٥. قيام الدولة في فرض تنفيذ الأحكام صغيرها وكبيرها، واعتبار عدم التنفيذ انتقاص من هيبتها ومكانتها.

خلاصة الخبرة:

من الخبرات التي اكتسبتها أثناء إعداد الدليل، ضرورة وأهمية العمل الجماعي في الدراسات الميدانية الأكاديمية والبحثية الجادة، فالعمل فيه مشقة وتركيز وتدوين وجمع، ومن الصعب القيام بذلك بصورة فردية وخاصة أنه لا بد أن ينجز في مدة محددة بخطة أعدت سلفاً. هذا إلى جانب أن العمل الميداني يتطلب روحاً مرحة، وذكاء في التعامل مع طبائع الناس المختلفة، ولذلك كان الاستعانة بأشخاص من نفس المنطقة على درجة كبيرة من الأهمية، لأنه يوفر الجهد في فهم اللهجة المراد تدوينها، ويسهل التنقل في جغرافيا جبلية تارة وصحراوية تارة أخرى. والأمر الأخير أن تتعامل بصدق وحسن نية واحترام وترحيب بكل من تقابله، وهنا يكمن سر نجاح البحث الميداني المتعلق بتدوين التراث اللامادي (الشفهي).

دليل المصطلحات العرفية

المستخدمة في التعامل مع النزاعات المحلية

(بحث ميداني مرجعي)

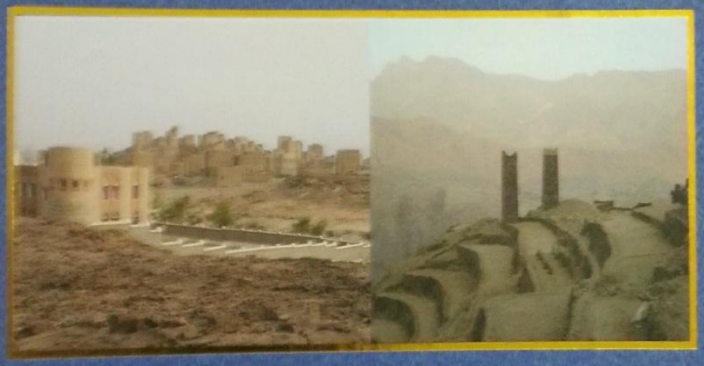

مديرية برط المراشي - محافظة الجوف
مديرية منبه - محافظة صعدة

إعداد
الدكتور/ عارف أحمد إسماعيل المخلافي